سيرة عالم

للدكتور سامى الدهان

كان عامة الجمهور فى « حلب » يعجبون لهذا الرجل الغريب، يجدونه عند كل حجر عتيق من أحجار المدينة ، يتسلق الصخر، ويعلو الجدران القديمة ، والأسوار المتهدمة ، وبيده ورقة وقلم ، يخط سطوراً ويمحو سطوراً، لا يبالى بالهامس حين يمر أو الساخر حين يتحدث ، فالناس عندنا لم يألفوا من يصاحب الصخر يومه، ويتحدث إليه ساعات من نهار ، يستنطقه عن الماضى القديم ، ويستخبره عن الأجيال السالفة .

وكان منظر الرجل يثير كذلك دعابة حينا ودهشة حيناً آخر، فقد أرسل لحيته ، ولبس البسيط من الثياب ، وجلس جلسة ابن البلد إلى الحجر والتراب ، يقتلع العشب عن الحجر ، ويمسح عنه الغبار ، كأنه شحيح ينقش فى ثناياه عن كنز مدفون وثروة مخبوءة. على أن الناس يمرون بهذا الصخر والحجر عشرات المرات لا يبالون ولا يأبهون ، فقد ألفوا أن يروا فى سبيلهم كتابات عريضة لم يحاولوا أن يقرءوها ، وتواريخ مسطورة لم يجربوا أن يفهموها ، ومالنا ولهذا الجنون الأوربى إذ يكلف بالغريب ويعكف على العجيب ؟

وكان الرجل على ذلك كله ماضياً فى عمله لا يهمه تهامس الناس حوله، ولا تثنيه نظراتهم المريبة وشكهم الملح، فهم يرمونه بالجهل إذ يضيع أيامه بما لا ينفع الحياة ولا يجلب المال .

وطال على ذلك سنين انتهى بعدها إلى كتاب صغير نشره بالفرنسية صور فيه الأبنية الأثرية ، ورسم مصوراً لهذه الأبنية ، وخلص إلى نظرية جديدة هزت المستشرقين طربا ، فقد وقفوا على صورة « حلب » كما كانت قبل ألف عام ، أو تزيد ، وحدد أماكن الجدران والأسوار من هذا السور . وبين مواقع المساجد والجوامع والتكايا ، وكأنه قد بنى المدينة على الورق من جديد ، ولم يبق إلا أن يرسم هؤلاء الذين عاشوا بين جدرانها تتقلب عليهم الحروب ، وتهزم الغزوات ، وأن يعين أماكنهم وحاراتهم .

وعرف المؤرخون الغربيون عن حلب ما لم يكونوا يعلمون؛ فقد رسم لهم المستشرق « جان سوفاجه » مواقع المعارك التى دارت خلف الأسوار ، وصور لهم بلاط الحدانيين والمرداسيين والأيوبيين والأتراك .

واشتركت مصر فى تعريف هذا الجهد ! فنشرت للرجل فى مجموعاتها ما عثر عليه من كتابات ، ونشرت إلى جانبها الترجمة الفرنسية والتعليقات العلمية . وتنبه المؤرخون كذلك إلى ما تحويه حلب فى حاضرها من بناء قديم يرى المستشرق أنه أقدم ما بقى فى سورية من الآثار، حتى انه اكتشف على أحد جدران المبانى كتابة هيروغليفية يعود تاريخها إلى ألفى سنة سلفت .

ولم يقف عند هذا حتى كتب رسالة للدكتوراه درس فيها تطور البناء فى حلب على مدى الأجيال . فعرض المدينة فى عهد اليونان والرومان والعرب ؛ وتوجت هذه الرسالة بكثير من الثناء ، وهتف المستشرقون للدارس الباحث ، وقد قضى شطراً من عمره فى بلاد الشام يتقرب إلى تاريخه ، ويتفهم ماضيه العمرانى . ونشرت الرسالة فى جزءين كبيرين أولهما فى دراسة هذه المدينة والثانى فى المصورات والصور التى تتحدث — على عادة الغربيين — عن ماض قديم قربه الرجل أوفر ما يستطيع عالم أن يفعل .

ولما سكن سوفاجه دمشق كتب كذلك عن ابنيتها وحاول أن يصنع لها ما يصنع لشقيقتها حلب ، ونشر بحثاً وبحوثاً عن الأبنية فى دمشق على عهد الأيوبيين .

وتابع دراساته ، وواصل نشر كتبه حتى يلفت المشرين ، فنقل من الربوع التى أحبها ، وعاش بين جدرانها ، إلى باريس وعين أستاذاً فى « الكوليج دفرانس » وهى مرتبة لا يبلغها إلا الصابرون المجاهدون من العلماء فى فرنسة وعين كذلك مديراً للدراسات العليا فى التاريخ الإسلامى بالسوربون . ولم تحبسه محاضراته وواجباته الجامعية عن متابعة التأليف والترجمة، فنشر كتابا بالفرنسية يعد أقوى مرجع فى التعرف إلى « مصادر